الاثنين 10/12/2012 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة التفسير

سورة الإنسان (4)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك وبعد:

فنحن في تفسير الآيات الأخيرات من سورة الإنسان.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، [الإنسان: 23-31].

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾.

أريدكم أيها الإخوة أن تتخيلوا مشهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وحوله أناس من المشركين يحاولون إزاحته عن الحق الذي جاء إليه، وأناس من المنافقين يرجفون عليه وعلى الإسلام والمسلمين الأراجيف.

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام بشر يصيبهم ما يصيب البشر، من شهوات وآلام ومغريات ومخاوف...

ففي زحمة هذه التيارات الشديدة، وأهل الباطل، والشرك، والنفاق، وزحمة الشيطان وما يمليه على الإنسان وزحمة الأهواء والمخاوف، يخاطبه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ المتكلم رب العالمين والمخاطب سيدنا محمد.

هذه التعليمات التي تؤتى إليك وتوحى إليك ليست من الدول الشرقية أو الغربية، وليست فلسفات وضعية، ولا أفكار جاء بها مجموعة من البشر أو الخبراء والسفراء ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ .

يا أيها الإخوة في زحمة حياة المسلم تعصف به عواصف شديدة من أهواء وفتن ومحن وأهل ضلال وفسق وسوء ممن يريدون أذيته وسحبه عن طريق الخير، لكنه يراقب قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ .

وهذا القرآن ما نزل جملة واحدة ولكن نزل منجماً على دفعات تنزيلاً مرة فمرة فأنت أيها المسلم تتلقى دعمك من السماء وهذا الدعم مستمر كلما عصفت بك عواصف أو رجفت حولك أراجيف، كلما أراد أناس أن يأخذوك عن طريق الله والصراط المستقيم فلا تخف ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾، لكن المهم أن تكون بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رجاعاً لهذا الذي أنزله الله تعالى بالقراءة والفهم والعمل.

سأل شاب ابن قيم الجوزية سؤالاً يقول له: ما تقول السادة العلماء فقهاء الدين في رجل ابتلي ببلية وعلم إن هو استمر عليها أفسدت عليه أمر دنياه وآخرته فأعينونا في كشف ما نزل بنا والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

فقرأ ابن القيم الجوزية هذا السؤال فألف كتاباً أسماه (**الداء والدواء**) وهو مؤلف من 350 صحيفة وهو مؤلف من مقدمة وثلاثة أدوية: الدواء الأول: هو القرآن الكريم.

أحياناً إنسان يصاحبه رجل من أهل الباطل فيحبه، فإذا أحبه علق قلبه به ثم يبدأ باتباعه مع علمه أنه على باطل.

أحياناً إنسان يحيط به خوف معين يمنعه عن الالتزام بالحق، ويقول: أنا خائف فسأتوارى لأظهر أنني أفعل ما يفعله أهل الشر، فهذا الأمر إذا استمر بالإنسان أفسد عليه أمر دنياه وآخرته سواء علق القلب بأهل الباطل وأتباعهم.

هذا القرآن ما دمت رجَّاعاً إليه فهو سيتنزل عليك بإمدادات تردك إلى الصراط المستقيم، وإذا أراد أهل الباطل أن يأخذوك باتجاههم فسيردك إلى طريق الحق.

الله نزله تنزيلاً فكن أنت إليه رجاعاً ترجع مرة فمرة.

قال والد محمد إقبال لمحمد إقبال: **(يا محمد اقرأ القرآن وكأنه يتنزل عليك)**.

فالآن الله يقول لك: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ نزلناه عليك أنت.

فإذا قرأت هذه الآية وأنت تستشعر نفسك بين يدي الله، والمتكلم رب العالمين، والمخاطب أنت فستشعر بتلك اللذة.

أحد الشباب سأل شيخه فقال: يا شيخي أنا أقرأ القرآن ولا أفهم شيئاً، قال: يا ولدي اقرأه وكأنك تَسمَعُه مني، فبدأ يقرؤه، وبعد حين قال: يا ولدي اقرأه وكأنك تَسمَعُه من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فزادت حلاوته في قلبه، ثم قال له الشيخ: اقرأه وكأنك تَسمَعُه من سيدنا جبريل، ثم قال له: اقرأه وكأنك تسمعه من رب العالمين، فجاءت حلاوته كلها.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ فالكلام الآن لك بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولكن المطلوب منك أن ترجع لهذا القرآن وتكون رجَّاعاً ترجع إليه في كل يوم، وفي كل ساعة، وفي كل زلزلة تحيط بك.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

ما دمنا نحن الذين نزلنا عليك القرآن تنزيلاً، إذن اصبر لحكم ربك.

قالوا: **اصبر**: أي اصبر لقضاء ربك من القضاء الكوني، والقضاء التشريعي.

أ. **الحكم التشريعي**: فإذا أمرك الله أن تفعل فاصبر لحكم ربك، وإذا أمرك أن تترك فاصبر لحكم ربك، وإذا أمرك أن تغض بصرك فاصبر لحكم ربك، وإذا أمرك أن تكف عن المال الحرام فاصبر لحكم ربك، وإذا أمرك أن تعرض عن أعراض الناس بالحرام فاصبر لحكم ربك، وإذا أمرك أن تمتنع عن مال الناس بالحرام فاصبر لحكم ربك، وإذا أمرك أن تمتنع عن دماء الناس بالحرام فاصبر لحكم ربك...

ب. **الحكم التكويني**: إذا ابتلاك الله 3ببلية فاصبر لحكم ربك، لأنك تتلقى الأوامر من السماء، وهذه عدة المؤمن أنه لا يتلقى تعاليمه من الأرض.

المؤمن هو الوحيد على هذه الأرض الذي يتلقى تعاليمه من السماء، أنتم الوحيدون على الإطلاق أما باقي الناس من غير المسلمين تعاليمهم أرضية.

الأمم المتحدة ترسم لهم الاتفاقيات لتنفيذها، أو فقهاء القانون الوضعي في بلادهم يضعون لهم قوانين لينفذونها أو تأتيهم تعليمات من وزارة الداخلية أو الخارجية، أو من أساتذة جامعيين لكن المسلمين وحدهم الذين يتلقون تعاليمهم من السماء من رب العالمين.

لذلك مهما وجدتم حبساً للنفس على ما تكره في سبيل الالتزام بأمر الله فافرحوا واطربوا واهنئوا لأنكم جماعة تتبعون رب العالمين وأوامره.

وإذا كان الذي يتبع الشرق أو الغرب يصبر أفلا ينبغي للمسلم أن يصبر على تعاليم حكم ربه؟! إذا أمركَ الله بالصلاة ألا ينبغي عليك أن تصبر لحكم ربك؟ أمركِ بالحجاب ألا ينبغي عليك أن تصبري لحكم ربك؟ أمركَ بالامتناع عن المال الحرام ورد الحقوق لأصحابها ألا ينبغي عليك أن تصبر لحكم ربك؟ إذا بلاك ببلية فاصبر لحكم ربك، والآن رب العالمين هو المتكلم والمخاطب هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومن بعده كل مؤمن ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

لا تأخذ تعليماتك من الأرض من أناس يكفرون بأوامر الله عز وجل، أو من أناس يعصون الله عز وجل، فهذا الأمر يتحدث عن الأوامر والقيم، وبالمقابل يتحدث عن الأصحاب.

والله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

آثماً: ذا معصية.

الحمد لله أكثرنا أو كلنا لا يطيع الكافر في كفره، لكن الحقيقة أنه هناك أحياناً بعض المسلمين يطيعون الآثمين في إثمهم، فصديقه صاحب معصية وله جلسة معصية يدعوه إليها فيحضر جلسته.

قال لي بعض الإخوة –وهو مهندس يدرس بالاتحاد السوفييتي ملتزم ومحافظ على صلاته–: لي أصحاب أقاموا حفلة عيد ميلاد لأحد الأصدقاء فلما صار عيد الميلاد دعوني فقلت لهم أعتذر

عن الذهاب إلا أنني سأتصل به وأهنئه، فقالوا: وعندها يحزن منك، فقلت: أنا لا أريد الذهاب لأن الاحتفال يقدم به المسكرات، وأنا لا أشرب فحلفوا لي أنهم لن يشربوا.

فلما ذهبت قدموا الشراب وقالوا لي: أنت لا تشرب، وبدأ الشراب يوزع فأضفت، فقلت: أنا لا أشرب، فتكاثروا علي لأشرب فشربت حياءً .

انتبهوا فإن أهل الرذيلة والإثم والباطل هكذا يأتمرون بكم فلا تنظر أنك إذا كنت في طاعة ولك أصحاب من أهل المعصية فسيتركوك، بل يريدون أن يسحبوك إليهم.

يا أيها الإخوة ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أنت إنسان تتلقَّ تعاليمك من السماء، أنت رجل يتنزل عليك أوامر الله عز وجل، هل يعقل أن تذهب لعبد عاص أو فاجر أو كافر لتأخذ تعاليمك منه؟ لذلك الله قال: ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ .

مما يعينك على عدم الطاعة: عدم الصحبة.

والله أحدنا حتى يُحَصِّل قلباً ذاكراً أو فهماً عن الله في قرآنه، أو صلة بحضرة الله، يحتاج أن يبذل من الأعمال الصالحات والصلوات والخلوات ومن الصدقات ومن المبرات ما الله به عليم، فهل يعقل أن تهدم هذا البناء لأجل صحبة فلان من الناس لأنه يعصي الله عز وجل، إذا جاء معك لطريق الخير فأهلاً وسهلاً، لكن إذا لم يأت فـ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ، [الكافرون: 6].

قال الله لأصلح أهل الأرض وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: لا تصاحب الفجار والعصاة، وهل يعقل أن يكون هناك عاص يؤثر برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ ، [الكهف: 28].

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

لا تنسوا أيها الإخوة بأن هذه السورة هي سورة الإنسان، وكان في مطلع هذه السورة قصة البداية، وما المطلوب منك في هذه الحياة، والنهاية.

والدرس الماضي كان هناك ما أعد الله لك في الجنة.

الآن حتى تصل للجنة ختم الله السورة بالتعليمات التي تساعدك للوصول إليها.

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

ما اسم ربنا؟

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**))، [البخاري ومسلم].

والعلماء عدوا أكثر من تسعة وتسعين اسماً لله تعالى، من هذا الحديث وأحاديث أخرى، لكن كثيراً من العلماء قالوا: إن اسم الله الأعظم هو لفظ الجلالة الله.

فالآية تقول: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

يعني الله لذلك هناك مدرسة من مدارس التربية الروحية والتي تسمى المدرسة النقشبندية يذكرون الله تعالى بالاسم المفرد: الله ..الله ..الله.. ويستدلون بعدد من الآيات والأحاديث وهذه الآية واحدة منها.

عن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: الله ..الله..**))، [مسلم].

الحقيقة أننا ضعاف جداً في هذه الحياة مادياً ومعنوياً فإذا كان رب العالمين ليس عوناً لك هلكت في الدنيا وفي الآخرة.

كيف لي أن أستمطر رحمات الله؟ بامتثال أوامره.

أحد امتثال أوامر الله كثرة ذكره لأنه من أكثر ذكر شيءٍ أحبه.

إذا صار الغالب على قلبك الاشتغال بحضرة الله عز وجل ملأ الله قلبك شرحاً وسعادة.

لكن إذا نسيت ذكر الله وغفلت عن ذكر الله تصبح تشتغل بالبلاد والعباد، فيتعب الإنسان ويشقى في وادٍ من أودية هذه الدنيا.

الإمام النووي ألف كتاباً كلكم تقتنونه اسمه كتاب (**الأذكار**) وأريد أن أقرأ عليكم صحيفة مما أورد الإمام النووي في هذا الكتاب:

قال الإمام النووي: (اعلم أنه كما يُستحبُّ الذكر يُستحبُّ الجلوس في حِلَق أهله وقد تظاهرت الأدلة على ذلك وسترِدُ في مواضعها إن شاء الله تعالى، ويكفي في ذلك:

حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا قَالُوا وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ قَالَ حِلَقُ الذِّكْرِ))، [الترمذي].

من رحمة الله تعالى بنا أننا لا نرى الملائكة ولو رأى أحدنا الملائكة ربما صعق أو ذهل فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عندما رأى سيدنا جبريل بصورته الملكية خاف.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: **((بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي.. زَمِّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ إِلَى قوله ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، [المدثر: 1-5]، فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ))** ، [البخاري].

فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول لنا هذه مجالس الذكر محفوفة بالملائكة، لذلك أنت تشعر أثر حف الملائكة ولا تراهم.

كيف تشعر بالأثر؟ أحدنا يحضر مجلس علم أو ذكر فإذا خرج شعر شرحاً في صدره مع أن همومه كما هي ومشكلاته وآلامه، لكن يشعر بأن هناك شيئاً حصل في قلبه وهذه هي سكينة الملائكة.

(وروينا في صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ. قَالَ: آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟! قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ. قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: ((مَا أَجْلَسَكُمْ؟)) قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا قَالَ: ((آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ))، قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: ((أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ)).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيْدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))، [مسلم]).

وَغَشِيَتْهُمْ: **الغشاء**: هو الغطاء الذي يغطي الشيء كاملاً.

عندما تضع على المنضدة غطاء يلبسها لبساً كاملاً يسمى غشاء.

أنا لا أعلم أيها الإخوة عبادة في الإسلام أو عملاً تجتمع فيه هذه التي اجتمعت هنا إلا في حلق الذكر والعلم.

(الذكر يكون بالقلب).

أي بإمكانك أن تجلس في الذكر فإذا قرأ القارئ أو دعا الداعي أو ناجى المناجي فلا تحرك لسانك بشيء لكن تورد اسم الله على قلبك فتستشعر أن قلبك مع كل نبضة يقول: ..اللهُ ..اللهُ اللهُ.. من دون أن تحرك لسانك وهذا القلب إذا دربته على هذا الذكر مع التكرار والتكرار يصبح قلبك لوحده يذكر اسم الله تعالى حتى وهو نائم.

هناك بعض الإخوة حتى في نومه يخبرهم أهلهم بأنه يقول: اللهُ ..اللهُ ..اللهُ.. وأحياناً يستيقظ يجد نفسه يقول: اللهُ ..اللهُ ..اللهُ..

من أكثر ذكر شيء في حياته فسيكون هذا الذكر آخر شيء عند مماته.

ذكر الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء ترجمة رجل كان عند موته يقرأ سورة يس حتى إذا وصل لقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾، [يس: 26-27] قال لتلميذه: أسندني، فأسندته إلى صدره فجعل يقول: اللهُ ..اللهُ ..اللهُ.. حتى طفئ.

(ويكون باللسان).

أحياناً نحن نقول: سبحان الله سبحان الله والحمد لله...

(والأفضلُ منه ما كانَ بالقلب واللسان جميعاً).

أحسن شيء أن يكون قلبك متوافقاً مع لسانك، وليس فقط لقلقة أو قلقلة باللسان أو تحريك باللسان، فإذا كنت تصلي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تستشعر معاني هذه الصلاة، إذا كنت تُسبّح، تحمد، تكبر تستشعر معاني هذا الحمد والتكبير فالأفضل منه ما كان بالقلب واللسان لأن الجوارح تعمل جميعاً.

(فإن اقتصرَ على أحدهما فالقلبُ أفضل، ثم لا ينبغي أن يُتركَ الذكرُ باللسان مع القلب خوفاً من أن يُظنَّ به الرياء بل يذكرُ بهما جميعاً ويُقصدُ به وجهُ الله تعالى).

يا أيها الإخوة إذا كان رب العالمين هو الذي أرسل لك هذه الرسالة هو من قال لك يا عبدي أوصيك أن تذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً، بالله عليكم إذا نصحنا رب العزة وأمرنا فهل يصدقنا النصيحة ويقضي لنا خيراً بالنصيحة؟ مليار بالمائة بلا ريب.

فإذا ترك إنسان نصيحة الله عز وجل فالله قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، [طه: 124].

والآن ستسمعون أيها الإخوة ماذا تقول الآيات فالله لا يجبر أحداً فإن فعلت فأنت المستفيد وإن لم تفعل فالله لا يجبرك لكن الإنسان سيدفع ثمن انشغاله عن الله وابتعاده عنه.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ .

كان بعض الصالحين يقول: إلهي لا يطيب الليل إلا بالوقوف بين يديك، ولا يطيب النهار إلا بقضاء حوائج الخلق تقرباً إليك.

أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم.

والله عندما يصير لك أُنس بالسجود بين يدي الله تعالى في الليل فسجدة بين يدي الله تساوي الدنيا وما فيها، وتساوي كل الألقاب العلمية التي حصلت عليها، والتي ستحصل عليها أنت وكل بني البشر، لحظة من القرب من حضرة الله عز وجل في ليلك وخلوة بينك وبين الله تساوي الدنيا وما عليها.

كان بعض الصالحين إذا جلس للذكر أو سجد بين يدي الله تعالى يقول إذا كان أهل الجنة بمثل الحال التي نحن بها إن الجنة لشيء حسن.

وإن السجود بين يدي الله والأنس بذكره يعدل السماء والأرض وما فيهما.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ .

هَـؤُلَاءِ: الذين لا يأتمرون بهذه الأوامر، والذين كانوا مشركين من أهل الباطل، والذين يريدون أن يبعدونك عن طريق الحق.

يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ: كل همهم هو البيع والشراء والطعام واللباس والحذاء ونوع جهاز المحمول وقصة الشعر التي تقص لهم، والماكياج، وأين سيقضون العطلة وماذا سيقول الناس عنهم...

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ .

شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ: أي أحكمنا خلقهم، فخلقهم محكم.

ومع أننا من خلقهم وشددنا أسرهم فهم لا يأتمرون أمرنا.

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ .

أي ما جاء في هذه السورة تذكرة، فالله لا يجبر أحداً فهذا الطريق المستقيم وهذه التعليمات والمخطط، فإن أحببت السير فتفضل، وإن لم ترد هذا المسير فلا مشكلة ولكن ستدفع ثمن عدم الائتمار بالأمر الإلهي.

إذا كان هناك شركة سياحية أخذت مجموعة وأرسلت لهم دليل سياحي وقالت لهم: هذا الرجل سيخدمكم ويأخذكم ويدلكم، وهو خبير بالطرقات فابقوا معه تقضون رحلة جميلة وسعيدة وتسروا، وقد دفع لكم كامل الآجار فكل المجموعة سروا ووافقوا للذهاب، لكن أحدهم قال: أنا أريد أن أذهب لوحدي، ولا أريد هذا الدليل.

فإن ضاع هذا الرجل فليس له حق أن يلوم هذه الشركة وما أرسلت، بل عليه أن يلوم جهله وغباءه، لأن الشركة أرادت أن تخدمه أفضل خدمة لكنه أراد أن يتبع هواه؛ فلذلك إذا ضاع، أو أسيء إليه، أو مات، أو قتل... فهو من يتحمل ما حصل، والله يقول: ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ .

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

اعلموا يا عبادي أنكم بالنتيجة عباد وكلكم ضمن المشيئة فلا يخرج أحد منكم عن مشيئة الله عز وجل وعن أقداره في هذا الكون فهو عليم بما تعملون، حكيماً بما يأمر وينهى.

﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، اللهم أدخلنا في رحمتك.

إذا قامت هذه الشركة بوضع الدليل، وقالت للمجموعة: هذا الدليل سيوصلكم فكل المجموعة وافقت إلا واحد فمن الذي سيدخل في رحمة هذه الشركة؟ الذي ائتمر بالأمر، ومن الذي سيدخل في عذاب الحياة وصعوبات الحياة؟ الذي خالف الأمر.

فِي رَحْمَتِهِ: أي من التزم بأوامر الله عز وجل فالمشيئة تقضي بأنه مرحوم لأننا دللناه على الصراط المستقيم.

قال بعض العلماء: **في رحمته**: أي في جنته.

وَالظَّالِمِينَ: أي المخالفين والمعاندين والراكبين لأهوائهم وشهواتهم، والذين يقدمون ما تمليهم عقولهم وشهواتهم على أوامر الله، ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

وهذا الإعداد طبيعي، فهذا الطريق يوصلك إلى الهدف الذي تريد، والسعادة، وهذا الطريق الذي يذهب بعيداً يوصلك إلى شقاء وعذاب.

فمن سار بالطريق المستقيم سيدخل في رحمته ومن سار في طريق الشمال سيذهب لطريق العذاب وهو من اختار بملء إرادته، فالله رسم له طريق الخير والعذاب وهو من اختار.

أما المعنى الخاص فيما نحن فيه في هذه الأزمة:

يا أيها الإخوة قولوا للظالمين: أن الله تعالى أعد لهم عذاباً أليماً.

أحياناً أب يزعجه ابنه إزعاجاً شديداً فيقول له: سأحضر لك أمراً وسنتحاسب، ففي هذا الأمر سيبدأ الولد بالتفكير بهذا الحساب، أما لو كان الأمر بسيطاً لعاقبه فوراً.

وقول الله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ فالمعد هو الله فإذاً عندما ينزل العذاب بالظالمين فلن يرحموا لأن الله أمهلهم كثيراً وكان قد أوعدهم كثيراً، لكنهم لا يفهمون فكان نتيجة طريقهم أن يصلوا إلى ما أعد الله لهم.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.